الكشاف

عن

حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل

في وجوه التأويل

للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري

(٤٦٧-٥٣٨ هـ)

تحقيق وتعليق ودراسة

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود | الشيخ علي محمد معوض

شارك في تحقيقه

الأستاذ الدكتور فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي

أستاذ البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

الجزء الأول

مكتبة العبيكان

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب. ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس ٤٦٥٠١٢٩

وتجهيلا لها بقدر ما وهب لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظائم الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً. فلذلك تحسرت، وفي قراءة ابن عباس «والله أعلم بما وَضَعْتِ» على خطاب الله تعالى لها أي: إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله من عظم شأنه وعلوّ قدره، وقرىء: «وضعت». بمعنى: ولعلّ لله تعالى فيه سراً وحكمة، ولعلّ هذه الأنثى خير من الذكر تسلية لنفسها. فإن قلت: فما معنى قوله: ، ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾: ؟ قلت: هو بيان لما في قوله: ، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾: من التعظيم للموضوع والرفع منه، ومعناه: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها، واللام فيهما للعهد. فإن قلت: علام عطف قوله: ، ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: ؟ قلت: هو عطف على إني وضعتها أنثى، وما بينهما جملتان معترضتان، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: ٧٦] فإن قلت: فلم ذكرت تسميتها مريم لربها؟ قلت: لأن مريم في لغتهم بمعنى العابدة(١)، فأرادت بذلك التقريب والطلب إليه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها، وأن يصدق فيها ظنها بها. ألا ترى كيف أتبعته طلب الإعاذة لها ولولدها من الشيطان وإغوائه، وما يروى من الحديث. «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهلّ صارخاً من مس

= «لا شك أن قصد المخبر أي من يكون بصدد الإخبار والإعلام لا من يتلفظ بالجملة الخبرية فإنه كثيراً ما تورد الجملة الخبرية لأغراض أخر سوى إفادة الحكم أو لازمه كقوله ـ تعالى ـ حكاية عن امرأة عمران ـ ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ ـ إظهاراً للتحسر على خيبة رجائها، وعكس تقديرها، وللتحزن إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً» وبهذا ينفتح الباب لأغراض نفسية تثور في الأنفس بلا حد ولا عد، وهذا المجال واسع، وقد حصر منه البلاغيون بعض أنماطه في آيات الكتاب العزيز، ولكن الطريق طويل، وإلى الله ـ وحده ـ المصير.

«ينظر المطول ٤٣ وما بعدها، والإيضاح ١/ ٨٦، ٨٧، عقود الجمان وشرحه للسيوطي، وحواشي المرشدي عليه ١/ ٤٠، ٤١، خصائص التراكيب لأبي موسى ٤٦، علم المعاني في تفسير فتح القدير للشوكاني ١/ ٣٨٨ وما بعدها.

(١) (عاد كلامه) قال: «وفائدة قولها (وإني سميتها مريم) أن مريم في لغتهم العابدة. . . إلخ» قال أحمد: أما الحديث فمذكور في الصحاح متفق على صحته، فلا محيص له إذاً عن تعطيل كلامه عليه السلام بتحميله ما لا يحتمله جنوحاً إلى اعتزال منتزع في فلسفة منتزعة في إلحاد ظلمات بعضها فوق بعض. وقد قدمت عند قوله تعالى ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ ما فيه كفاية، وما أرى الشيطان إلا طعن في خواصر القدرية حتى بقرها، ووكر في قلوبهم حتى حمل الزمخشري وأمثاله أن يقول في كتاب الله تعالى وكلام رسوله عليه السلام بما يتخيل، كما قال في هذا الحديث، ثم نظره بتخييل ابن الرومي في شعره، جراءة وسوء أدب. ولو كان معنى ما قاله صحيحاً لكانت هذه العبارة واجباً أن تجتنب، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن على بعد أن يكون تمثيلاً. وما هو واقع مشاهد فلا وجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد الضئيل وارتكاب الهوى الوبيل.

الشيطان إياه، إلا مريم وابنها» فالله أعلم بصحته. فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها» (٢٣٢) فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتهما كقوله تعالى: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٠] واستهلاله صارخاً من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول: هذا ممن أغويه، ونحوه من التخييل قول ابن الرومي [من الطويل]:

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا   يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ(١)

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا، ولو سلط إبليس على الناس بنخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً وعياطاً مما يبلونا به من نخسه، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾: فرضي بها في النذر مكان الذكر، ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾: فيه وجهان: أحدهما أن يكون القبول اسم ما تقبل به الشيء كالسعوط واللدود، لما يسعط به ويلد، وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكر في النذر، ولم يقبل قبلها أنثى في ذلك، أو بأن تسلمها من أمّها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة، وروي: أن حنة حين ولدت مريم، لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون، وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، وكانت بنو ماثان رءوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها،

---

٢٣٢ ـ أخرجه البخاري (٦/ ٥٤١): كتاب الأنبياء: باب قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾، حديث (٣٤٣١)، وطرفه في (٤٥٤٨)، ومسلم (٨/ ١٣١ نووي): كتاب الفضائل: باب فضل عيسى عليه السّلام، حديث (١٤٦/ ٢٣٦٦) وأحمد (٢/ ٢٣٣، ٢٧٤ ـ ٧٥) والطبري (٦/ ٣٣٧، ٣٣٩)، حديث (٦٨٩١، ٦٨٨٧) والبغوي في تفسيره (١/ ٢٩٥) آية (٣٦) من آل عمران، وابن حبّان في صحيحه (١٤/ ١٢٩)، حديث (٦٢٣٥).

قال الحافظ:

قال المصنّف: الله أعلم بصحته هكذا قال والحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة في آخره: قال أبو هريرة اقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾. انتهى.

---

(١) لما تؤذن الدنيا به من صروفها   يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها   لأفسح مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه   بما سوف يلقى من أذاها يهدد

لابن الرومي، يقول: إن بكاء الطفل حين ولادته لأجل ما تشعر به الدنيا من حوادثها فقط، وإن لا يكن بكاؤه لذلك، فأي شيء منها يبكيه، أو فأي شيء يبكيه منها، وإنها أي الدنيا، وروي: وإنه، أي الطفل لأفسح موضعاً مما كان فيه من ضيق الرحم وأرغد منه. وعوده على ما يبكيه بعيد، أو غير سديد. ويجوز أنه عائد على فضاء الدنيا المعلوم من المقام، ثم قال: إذا أبصرها صرخ، كأنه يخوف بما سوف يناله من أذاها قبل حصوله.